كيف أكتشفُ إرادة الله في حياتي؟

إنَّ اكتشاف إرادة الله في حياتنا أمرٌ غاية في الأهمية، وهو أساسيٌّ في إيماننا المسيحيّ، ولكن كيف نَصِلُ إلى ذلك؟ في البداية، علينا تحديد إرادتنا ورغبَتنا في الحياة، ومن ثمَّ معرفة إرادة الله، وبعدها تحديدُ إذا ما كانتا تتوافقان معاً أم لا. يقولُ بولس الرسول في رسالته الأولى إلى تلميذه تيموثاوس: "إنَّ الله يريد أن جميع النَّاس يخلصون". فإرادة الله إذاً هي خلاصُنا وحسب، وهي تتجلَّى عبرَ التاريخ بأكمَلِهِ، ولا يقتصرُ ظهورها على حدثٍ أو اثنين.

في أغلبِ الأحيان، لا نتمكَّنُ من فَهْمِ سببِ وقوع حدثٍ مُعيَّنٍ في حياتنا، ونطرحُ سؤالنا الدَّائم: لماذا يحدث هذا لي؟ وهو سؤالٌ لا جوابَ له، إذ لا يمكِنُنا فهم السَّبب مهما فكَّرنا، ولكن يمكننا أن نقبلَ هذه الأحداث فقط، لِنَصِلَ بعدها إلى قبولِ سيادة الله على حياتنا. ونحنُ نقبلُ هذه السِّيادة مهما كانت، ونُعلِنُ هذا القبول عندما نُصَلِّي كلِمَتَيْن اثنتَيْن: "لتكُنْ مَشيئتكَ"، وعلينا أن نَتَنبَّه وننتظِرَ لنرى ماذا يريدُ الله مِنَّا عبر النَّظرِ في أحداثِ تاريخِ حياتنا، واللهُ يساعدُنا مع الوقت لنفهمَ ونتعلَّمَ.

نحن نريد أن نكون سببَ سرور الله عندما نُرضِيه هاتفين "لِتَكُن مشيئتكَ"، إذ نُسْلِمُهُ ذاتنا، حتى وإن لم نفهمْ سببَ الجراحِ والصعوبات والتَّحدِّيات التي تُثْقِلُ قلوبَنا وأرواحَنا، فيفرح الرَّبُّ بنا كما فرحَ الرب عندَ اعتمادِهِ في نهر الأردن على يدِ يوحنا: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرْت".

في الكتاب المقدَّسِ، إرادةُ الله تحمل الكثيرَ من المعاني ومنها: القضاءُ الأزليُّ، الاختيارُ، الدَّعوةُ، التَّحريرُ، المواعيدُ، الخلاصُ، وغيرها.

إرادةُ الله مُحقَّقةٌ في السماء، وعندما نرغبُ في تحقيقِها على الأرض أيضاً – بإعلان التسليم التَّام لله وسيادَتِه المطلقةِ على حياتنا– ينتفي وجودُ الأرضِ من حياتنا، وتَتَحوَّلُ الأرضُ سماواتٍ جديدةً: "لتكُن

مشيئتكَ، كما في السَّماء كذلكَ على الأرض". إذ أنَّ ما يميِّزُ الأرضَ عن السَّماء هو عدمُ معرفتنا لكيفيَّة إعلان: "لتكن مشيئتك"، وعندما نعلنها تختفي الفوارقُ بينَ الأرضِ والسَّماء وتُضحي الأرضُ سماءً.

إرادة الله في حياتنا هي فرحُنا وسرورنا، فالله يريدُ خلاصَنا، ويريدُ أن نكونَ سعداءَ في حياتِنا. وتحقيقُنا لإرادة الله وعيشُنا بحسبِ المسيحيَّةِ الحقَّة لا يعني أن نحيا بألمٍ وعذابٍ مُستمرٍّ، فإلهنا يريدُ فرحَنا جميعاً.

إرادةُ الله في حياتِنا ليسَت مكتوبةً في سجلٍّ مُسبقاً، وهذا الاعتقادُ السَّائدُ ليس مسيحيَّاً على الإطلاق، وليس مَنطقاً إنجيليَّاً. وتظهرُ إرادة الله تدريجيًّا من خلالنا، عندما نُحبُّ من قلوبنا كلَّ يوم. وبحسب القِدِّيس توما الإكويني، فإنَّ إرادة الله في النِّهاية هي الخيرُ، وكلُّ ما يفتقرُ إلى الخيرِ ليس من عندِ الله.

يقولُ بولس الرسول في الآية السَّابعة من الفصل العاشر من الرِّسالة إلى العبرانِيِّين: "هأنذا آتي يا الله لأعملَ مشيئتَكَ"، وهذه صلاتُنا اليوميَّة. إذ قد تتضمَّنُ مشيئتُنا الشَّرَّ، أمَّا إرادةُ الله فهي الخيرُ حتماً، لذا علينا أن نعملَ بها يوميَّاً.

كلمةُ "الإرادة" مشتقَّةٌ من اللُّغةِ اليونانيَّةِ، وأصلها "تيليما"، وجذرها "تيلو"، وتعني تحديدَ الاتِّجاه. فإرادة الله هي أيضاً تحديدُ خياراتِنا وأهدافَنا ورغبتَنا وفرحَنا. وإن وقعْنا أمامَ خيارَيْن أو أكثرَ، وارتبكْنا غير مدركين ما الخيارُ الأفضل، علينا أن نتذكَّرَ أهمية الصَّلاة إلى الرُّوح القدس، الذي سيدلُّنا على إرادةِ الله حتماً، فلا نختار الشَّرَّ الذي لا نريد، بل الخير.

منذُ اليوم الأول الذي سقط فيه آدم، أضْحَت إرادةُ الإنسان بحالةِ عبوديَّةٍ، وكُبِّلَت إرادتُنا بالخطيئة، وخسرنا نعمةَ الحريَّةِ، والحريَّةُ هي هديَّةُ الله للإنسان، إنْ أحسنَ استخدامَها قادَتْهُ إلى الخير، وإنْ لم يفعلْ أدَّت به إلى ارتكابِ الشرور. و لا يجبُ على الإنسانِ أن يتردَّدَ طويلاً في اتِّخاذِ قراراته، ولكن عليه ألَّا يتسرَّعَ في الوقتِ ذاته، وهو ما حذَّر منه يوحنا الثالث والعشرون الذي تستعدُّ الكنيسة لتطويبه قدِّيساً.

في العهد القديم:

- وضعَ اللهُ لنا شريعةً قيَّدَتِ الإنسانَ وحرِّيَّتَهُ منذُ اليوم الأول الذي خُلِقَ فيه – إذ طُلِبَ منه ألَّا يأكلَ من شجرة معرفةِ الخيرِ والشَّرِّ– وتحوَّلَت إرادةُ الإنسانِ إلى لعنةٍ وعقابٍ. ومن هنا تبدأُ الإرادةُ

بالظُّهور عبر التَّاريخ والأحداث، سواء في تجربةِ الخروجِ من مصرَ، والسَّبي إلى بابلَ، وبناءِ هيكل أورشليم. ومنها جميعها يجبُ أن نعرفَ أنَّ الله لا يريدُ الموتَ للإنسان، بل الحياة.

- كما تظهرُ إرادة الله أيضاً في الفكر المُلهَمِ، كفكر الأنبياءِ الرائع.
- وإرادةُ اللهِ مُستقِلَّةٌ، إذ يُقرِّرُ اللهُ ما يريدُه، ويُنفِّذُ كلُّ ما يشاء دونَ وجودِ مجالٍ للجدل. واللهُ له السُّلطان على السَّماء والأرض، تخضعُ له جميعُ قوى الطبيعة، وهو يُدبِّرُ حركةَ قلبِ الإنسان، يرفعُ من يشاء ويُنزِلُ من يشاء؛ فمنْ أنتَ أيُّها الإنسان لتعترِضَ على الله؟
- وإرادةُ الله حكيمةٌ، وقد جاءَ في الفصل الثَّالث والثلاثين من سِفر المزامير: "إنَّ مشورةَ الرَّبِّ تدومُ إلى الأبد، وآراءَ قلبِهِ إلى جيلٍ فجيلٍ". وإرادةُ اللهِ خَيِّرةٌ حتماً، ولكن قد يحدثُ تصالبٌ بينها وبينَ إرادة الإنسان، تنتُجُ عنه فكرةُ العقاب.

أمَّا في العهد الجديد:

- تظهرُ إرادة الآب بمنطقٍ جديدٍ يكشفُ مواضعَ مَسَرتِهِ وفرحِه: "لا تخفْ أيُّها القطيعُ الصَّغير، قد سُرَّ أبوكم أن يعطيَكُم الملكوت".
- المرَّة الأولى التي ظهرَ فيها يسوع مُتَكلِّماً في الإنجيلِ كانَت عندما وَصلَ سِنَّ الثَّانية عشرة، عندما وُجِدَ في الهيكل وقال: "يجبُ عليَّ أن أكونَ في بيتِ أبي". كما ختَمَ حياتَهُ بأكملها قائلاً: "يا أبتاهُ، بينَ يدَيْكَ أستودعُ روحي". أي بدأَ كلامَهُ بالله أبيه، وخَتَمَهُ به، وخلالَ حياتِهِ كان يقول: "طعامي أن أعملَ إرادةَ أبي". ونحن إن كُنَّا على مثالِ يسوع، سيملأُ الفرحُ حياتنا، وننسى التَّعب.
- ويسوعُ قد أتى ليُتَمِّمَ إرادةَ أبيه: "قد جئتُ لأُتَمِّمَ إرادةَ من أرسلني"، فرسالتنا في الحياةِ إذاً هي تتميمُ إرادة الله.
- وسنعيشُ حتماً الصِّراعَ يوميَّاً كما عاشَهُ يسوع في بستان الزيتون قائلاً: "أبعد عنِّي هذي الكأس"، ليستدركَ بعدها ويقولَ: "لتكُنْ مشيئتكَ".
- عندما تعرَّضَ البابا يوحنا بولس الثَّاني لحادثةِ إطلاقِ النَّار، تساءَلَ في البداية: لماذا؟ ولكنَّهُ بعدَها غفرَ وسامحَ بحسبِ مشيئةِ الله. ونحنُ علينا ألَّا نخشى ردَّاتِ فعلِنا الإنسانيَّةَ أمام المشاكلِ، وألَّا نخجلَ بدموعنا وصرختنا، فهي حقٌّ مشروعٌ، ولكن علينا أن نَستدرِكَ دوماً ونصرَخ: "لتكُنْ مشيئتكَ".
- وردَ في إنجيل متَّى (29:10) "أما يُباعُ عصفوران بفلسٍ واحدٍ؟"، وفي أنجيل لوقا (6:12): "أما تُباعُ خمسةُ عصافير بفلسَيْن؟" أي أنَّ عصفوراً خامساً يُعطَى مجَّاناً عندَ شراء أربعة عصافير، ولكن

حتَّى هذا العصفورُ المجانيُّ: "لا يسقطُ على الأرض بدونِ إرادة أبيكُم". أي أنَّ الله يهتمُّ حتى بالعصفورِ المجانيِّ، فكيف إذاً اهتمامُهُ بالإنسان؟ لذا علينا ألَّا نخافَ وألَّا نحيا بقلقٍ طالما أنَّ الله ساهرٌ علينا، وطالما أنَّ إرادته هي حبُّنا وخيرُنا وخلاصُنا. وعلينا أن نتوقف عن نسب المصائب إلى إرادة الله، فالله يعرف ويدرك ما سيحدث ولكنه لا يريد الشر ولا موت الإنسان. ولنعرف إرادة الله علينا أن نصغيَ إلى إلهام الروح القدس ليوجه حياتنا، كما نكتشفها في الكتاب المقدس، ومن خلال الكنيسة ومن يرافقنا في حياتنا الروحية.

ويقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية (2:12): "نميِّزُ ما هو صالحٌ، وماهو مَرضِيٌّ، وما هو كاملٌ"، فإرادةُ اللهِ إذاً هي القداسةُ، والمَرضَاةُ والكمالُ.

والله قادرٌ على كلِّ شيء، ولكنَّهُ أحياناً يتركُ الحريَّةَ للأحداثِ والظروف أن تحصلَ وتستمرَّ، ونحن علينا أن نتعلَّمَ قراءةَ هذه الظروف، بالحكمة التي يمنحنا إيَّاها الله، وبالمرافقة الروحية التي يُساعدنا من خلالها الكاهن.

وعندما نطلبُ من الله، علينا أن نطلبَ ما يصُحَّ بحسب الكتاب المقدس، وما يمجِّد الرَّبَّ ويساعدنا في النمو الروحي، وهو يضعُ فينا روحاً جديداً، ويُغيِّر قلوبَنا، ويساعدُنا في تمييز إرادته يوميَّاً في حياتنا. وقبولُ إرادته ليسَ بالأمر السهل، بل يحتاجُ إلى الوقت والصَّبر، والله يضع أجوبةً في حياتنا.

يوماً ما سنفهمُ قصدَ الله وإرادته، عندما ننتقلُ إلى الحياة الحقيقيَّة. والمفتاحُ هو الصَّبر والتسليم – كمريم العذراء التي تمَّمَت إرادةَ الله كُلِّيَّاً– فللرب مشروعٌ في حياةِ كلِّ فردٍ مِنَّا ولتكُنْ مشيئتهُ، آمين.

ملاحظة: أبرز ما جاء في محاضرة الخوري جوزف سلوم "كيف أكتشف إرادة الله في حياتي؟"، ألقيت في رعية مار يوسف– المطيلب بتاريخ 2014/1/30 وقد دُوِّنَ من قِبَلِنا بتصرُّفٍ.